

طبعة يناير 2026



سجلات الريف العربي

سجلات الريف العربي
أمال صبحي

رقم الإيداع: 2026 / 00000
التّرقيم الدّولي: 978.977.0000.00.0

مراجعة: لخضر بن الزهرة
غلاف وتنسيق داخلي: فريق دار الهالة

دار الهالة للنّشر والتّوزيع
- جمهورية مصر العربيّة -



المدير العام: هالة البشبيشي

f | Alhalapublishing
✉ | alhalapublishing@gmail.com
☎ | (+20) 1066444204

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونياً: نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً؛ دون إذن خطي من الدار. جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن رأي كاتبها، ولا تُعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

قصص

سجلات الريف العربي

أمال صبحي

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

محاولة موت ناجحة

كنت أسقط... بلا مظلة، بلا تحذير، بلا حتى فكرة واضحة عن الأرض التي أنتظر أن أرتطم بها.

كل ما كنت أعرفه أنني أُطرد من مكاني، من بيتي، من عالمي الصغير. لم يكن ثمة مجال للتشبّث؛ الجدران تنقبض حولي، والماء الذي كنت أسبح فيه يتسرب سريعاً، وصوت امرأة لا أعرفها يعلن شيئاً اسمه: «نزل ماء الرأس».

قبل دقيقة فقط كنت في أكثر الأماكن أماناً. مكان دافئ، مظلم، مالح الطعم، تصل إليه أصوات متقطعة من الخارج: ضحكات مكتومة، همهمات أُمي وهي تلعن تعبها، غناء أبي البعيد كأنه قادم من قعر بئر.

كنت أظن أنني سأبقى هنا إلى الأبد. كنت أظن أن هذا الوطن الصغير لن يخذلني.

لكن صباح حزيران ذلك، في صيف 1992، لم يكن صباحاً عادياً.

القرية كانت تصحو على حرّ ثقيل؛ الجردان تتجول في فناء الدار كما لو أنها صاحبة المكان، الصراصير تتسلق الجدران بألوانها البنية والعسلية، وفي ركن قصي تلتف أفعى على نفسها. عنزان تصرخان جوعاً من الحظيرة، وشجرة البرتقال تتساقط أوراقها بعدما زاحمتها دالية متسلقة على الماء والضوء. البئر يرشح، والتينة شقّت جدار الأسمت، والريحان مصطفّ في علب زيت وسمن فارغة كجنود حراسة متعبة.

في الغرفة المجاورة، أحضروا أمي من الحقل وهي في منتصف حصاد القمح. كانت محاطة بنساء القرية، وجوه متعبة، أيدي خشنة، أقدام متشققة. يتحدثن عن الخبز والمحصول وعرس نبيهة وطلاق أم العبد، وعن انهيار الاتحاد السوفييتي، وفلم (الراعي والنساء)، وكأن العالمين -عالمي الصغير وعالمهن الكبير- ينهاران معاً.

ثم جاء الارتطام الأول.

لم يكن هناك طريق عودة. كل تقلص كان صفارة إنذار؛ كل دفعة كانت تفجيراً يقوّض آخر جدار آمن. قاومت، تشبثت بجدران النفق، صرخت، لكن الأرضية انزلقت من تحتي، وسقطت السقطة التي يسميها الجميع (الولادة).

زغاريد في الأذن، أيدٍ تقطع حبلاً كان يمدني بالحياة.
أدركت وقتها أن الأمان انتهى، وأنه سيعود إليّ دائماً
ناقصاً، مثل ماء ساقية تتسرب منه الشروخ.

غسلوني بصابون الغار، وماء بارد، وزيت ورد. كنت
أرتعش، وهم يضحكون. أحارب الضوء الحارق، وهم
يقولون: «خرجت إلى النور».

لكنني كنت أعرف الحقيقة: أنا نُفيت... وهم احتفلوا.
أنا متُّ... وهم سمّوا ذلك ميلاداً.

وحين أداروا وجهي نحوهم، لم أرَ إلا ظهورهم. كانوا
جميعاً يحدقون في نافذة خلفي، نافذة لم أرها قط، لكنها
كانت مفتوحة على حقل قمح لا ينتهي. مددت يدي نحوه،
فصنفقوا.

كنت أظن أنني خرجت من الرحم... لكنني أدركت
متأخرة أنني ما زلت فيه، فقط تغيّر شكله، واتسع بما يكفي
ليجعلني أصدق أنني حرة.

شراشيب الذرة الشقراء

ابتليتُ منذ سنواتي الأربع الأولى بشعر كستنائي طويل،
نال انتباه الجميع كما نال استيائي. كان هناك وقت عليّ
أن أنفقه في حجر أُمي لترتبه على مهل، وتُشكّل بعضًا من
ورودها على منحنيات الجديلة، ابتداءً من الأحمر الجوري
وليس انتهاءً بالخزامى، مرورًا بالفل والياسمين، يتخلل كل
ذلك شرائط حريرية بلون (دم الغزال) غالبًا.

ثم كان عليّ أن أدسه تحت ياقة ثوبي ما إن تلحّ بوادر
شجار مع إخوتي؛ فأن يطالوه معناه أن الأمر سينتهي بكائي
وسخريتهم، وكان لقب (شَقيف) أكثر لقب مزعج الصق بي
على مرّ حياتي.

أخي الأكبر، على سبيل الدعابة، كان يقارن شعري الذي
يشبه شراشيب الذرة الشقراء - حسب وصفه - بشعر زوجته
الذي يشبه ذنب الفأرة - أيضًا حسب توصيفه. فجلب لي
ذلك غيرتها المُبطّنة لسنوات طويلة. أخي المتدين كان

يتذمّر من شعري مطالبًا بتخبّئته تحت حجاب شرعي درءًا
للحسد والعين، ولعدّة مرات كاد يخنقني برائحة البخور
اللاذعة التي سترقيني من الشر حسب يقينه. أحد إخوتي
الآخرين كانت تصدح ضحكته الرنّانة في أرجاء المنزل في
كل مرة يشاهدني فيها أقف على رؤوس أصابعي أمام المرأة
وأتوعد شعري بنهاية أليمة. أما أبي فقد اقتصرت ذاكرتي
الشعرية معه على مرة يتيمة، عندما استيقظت ذات صباح
شتوي بارد على وَقَع أصابعه تتخلل شعري قبل أن أطوّق
عنقه بذراعَي الصغيرتين.

ولكن لحظات الفرح هذه لا تلغي قسمني بأبني سأقصّه
قصيرًا جدًّا، بالكاد يلامس أذني، ما إن أصبح في عمر يسمح
لي بتقرير مصيره.

وهأنذا، بعد ثلاثة وعشرين عامًا، أقف كجذع زيتون
يابس أمام المرأة، وحيدة، منطفئة، ولا يزال شعري هنا
يلتف حول عنقي كحنش، ويلاحقني بهيئة كابوس كل نوم.
أمي هجرت حديقة ورودها وأحرق الشرائط الحريرية.
مات أبي قبل عشرين عامًا.

مات أخي المتديّن قبل ثلاثة أعوام.

مات أخي ذو الضحكات الرنّانة قبل عام ونصف.

مات أخي وزوجته قبل ستة أشهر.

وهأنذا، أواجه المرأة من جديد، كجذع زيتون يابس،
خالية من كل رغبات العالم، عدا رغبة مكبوتة بالبكاء.
أمسك المقص وأبدأ باغتيال الخصلات المتدلّية على كتفي؛
فليس عدلاً أن يموت كل هؤلاء الأحياء ويبقى شعري على
قيد الحياة، ليس منطقياً أن يكونوا الآن تحت التراب بينما
يعلن هو فورانه في جلد رأسي، وينعم بهواء نقي، ويرقص
على سمفونية الضوء والظل.

يمضي المقص الآن في شعري، وتمضي معه قصيدة
الورد والحريز، والدعابات الكثيرة، ورائحة البخور،
والضحكات الرنّانة. ولا يبقَ إلا ذكرى أصابع أبي، في
صباح شتوي بارد، وهي تتخلل شراشيب الذرة الشقراء.

المحبراتي

جسده مثقوبٌ، ممدّدٌ على الأرض كشباك صيدٍ تنفذ
منها الرياح الباردة، متفوقٌ في دمه المتجمّد، كأنه ثمارتين
شوكي في أجولة جوتٍ قديمة، تشبث بها الغبار كعلامةٍ
عمرٍ مُهمَل.

نزفه كان خرائط للغيوبة، وجروحه نوافذ مفتوحةً على
عالمٍ يهطل صقيعًا.

«إنهم هنا، يدورون فوق رأسي». قال جملته شاحبًا،
شاخصًا بنظره في الفراغ المُعتم.

ابتسم، مديده إلى الحمامات، فانغrust الشظايا أعمق
في ذراعهِ، وتأوّه مُصدرًا صوتًا أعلى من المستوى المتوقع
لرجل أحالت فُتات الزجاج المحطّم جسده إلى مصفاة.
أسكته صديقه بوضع كفه على فمه، وهمس في أذنه: «لا
تصدر أي صوت، سيكتشفون مكاننا». فرد عليه بإغماضة
متعبة، دلالةً على تلقي التحذير.

أردف الصديق المُنبطح بجانبه: «سينصرفون بعد قليل،
أو قد تأتي مؤازرة. ستنجو، سننجو».

رائحة المعدن البارد تختلط برائحة الغبار الكدرة، وكأن
الجسد والمدينة مستمران في عالمين متوازيين، يشتركان
في مساحة واحدة، لكنهما يفشلان في التداخل.

وسبعة عشر طيرًا ترفرف فوق رأسه، تهدل دون مراعاة
الخوف من الكلاب المُتقصّية أو المسلحين القرييين.

كان صاحب الجسد المثقوب طفلًا مشاكسًا غير مُؤدِّ،
كسولًا في الدراسة، مجتهدًا في العمل. شاءت أقداره ألا
يتعرف عن قُرب على حنان الأم ورأفة الأب؛ فقد كانت أمه
قاسيةً إلى حدٍّ جعله مع إخوته التسعة يعتقدون أن الهدف
من إنجابهم هو جني المال.

«أي أم هي تلك التي تلقي بأطفالها في سوق عمل
يصعب حتى على الكبار؟ عتال في سوق الهال! ولماذا
تفعل أم مكتفية ماديًا ذلك بأطفالها؟».

شكلت جملة «لا بأس، هذه أمور تحدث في أرقى
العائلات» رده الوحيد على أسئلة إخوته، التي هي نفسها
أسئلته. ولكن ما حدث فيما بعد ما كان ليحدث في أرقى
العائلات أو أدناها.

وَقَرَّ جزءًا من مصروفه الشحيح جدًّا واشترى حمامة.
حمامة واحدة صارت بعد أشهر تداول وتكاثر قليلة سرب
حمام، عددها بالتحديد سبعة عشر طيرًا. بنى لها غيَّة على
السطح، مستخدمًا الصناديق البلاستيكية والقش، سقَّفه
بشادر أزرق.

كل صباح، يحمل الحبوب بين يديه كأنها وعود صغيرة،
وينطق بتغرية تستفز الحمام للتجمُّع. ينثر الحبوب بعناية،
يراقبها أثناء تناولها، ثم يحفِّزها على الطيران، مستخدمًا
عصاه ليضمن تدريبها على الانسجام والعودة. تبلغ سعادته
ذروتها عندما تُشكِّل طيوره قوسًا في السماء، وعندما يعود،
يكون قد جهَّز لها الماء.

أصبح له بيت، عائلة على السطح. كان مشغولًا في
عالمه، بينما انشغلت القرية بـ(الحميماتي) الذي أهمل
عمله وشحَّت موارده، والذي صار المصدر الأكبر لإزعاج
الجيران بهمجيته وصراخه وصفيره، والذي لا تُقبل شهادته.
نزل أمر والدته على صدره كصخرة: «تبيع الحمامات أو
أغضب عليك!»

وتساءل إذا كانت كل قسوتها تلك وهي في وضع
الرضا، فما الذي قد يصدر عنها إن فعلت وضع الغضب.

فرد بدوره بأن فعّل (وضع الطيران)، ثم لجأت للترغيب ولم تُفلح. ضربه والده بحزامه العسكري.

أزاد مسؤول عمله الأحمال عليه. تحدث معه شيخ الجامع، حتى أستاذ الرياضيات ساهم بدوره بـ(فلقة) لم تُبق على قدميه لحماً. ولا جدوى. تمسك بـ(كشّة الحمام) كما يتمسك جندي بوطنه؛ كانت آخر وصايا والده الشهيد أن لا يخون أرضه.

في ذلك اليوم المشؤوم، عاد مُتكاساً إلى البيت لمعرفة المسبقة أن أمه قد دعت خالاته على الغداء. وكان يكره التجمّعات المماثلة. اجتاز باب الدار. كن جميعهن مُنشغلات بـ(فصفصة العظم) ومضغ (الفريكة). ألقى عليهن «السلام عليكم»، فرددن بنظرات فضولية وأصوات هامسة وابتسامات ساخرة. صعد إلى السطح، لم يجد الحمامات. أول ما خطر بباله أن أمه باعتها. نزل السلم متعثراً بخطاه، مصمّماً أنه سيستعيدها ويخفي معها إلى الأبد.

وقف أمام حشد النسوة غاضباً، وصاح بأعلى صوته المخنوق: «أمي، أين طيوري؟» ساد صمت رهيب لثوانٍ، بحلقت الخالات وبناتهن به بتعجب. وانفجرن بعدها بضحك هستيري. تنقلت عيناه بينهن: إحداهن تتلمظ،

أخرى تحرّك كفها على كرشها بحركات دائرية هادئة،
غيرهما تمضغ لقمتها وتدحجه بشماتة.

وأمه؟ أمه يا ناس! حملت الحمامة المشوية من
ساقها وأرجحتها في الهواء، وقالت بأنه لم يبقَ حمام،
ولكن (القلوب والحوصلات موجودة). واستقدمتها له،
ووضّحت بأنها لم تعد غاضبة منه بعد أن استمتعت بالمذاق
الشهي الذي وصفته بأنه (أزكى لحم حمام تذوقته في
حياتها)، وهمهم إخوته تأكيداً على حكمها. شعر أن دمه
يغلي. «سُطِّعِميني قلوبها؟ سامحتني؟ لو أنها انتزعت قلبي
وحمرته في المقلاة لكانت قد ذبحتني وأولمت عليه».

انتابه بَرْدٌ وَخَرَسٌ عَظِيمَان. مشى كَمُغَيَّبٍ إلى الرقعة
الترابية جوار الجبِّ، إلى المذبح. كانت الرؤوس لا تزال
هناك. وقع، ساندًا جذعه على الجدار الحجري، مُرخياً
يديه، مُمدِّاً رجليه في التراب، وبكى.

جمع الرؤوس في حجره وبكى. سحب خيطاً من كنزته
الصوفية، ضمّ الرؤوس خلاله، وعلّقها في رقبته، واستمر
في حداده يومين كاملين. يومين ينتحب فيهما وينثر التراب
فوق رأسه، وينام إذا غلبه التعب، فيرى سربه يحلّق كدائرة
فوق رأسه، فيصحو ليثابر على رثائه.

الصمت يثقل داخل الرجل صاحب الجسد المثقوب،
كأن المدينة بأكملها تتنفس عبر ثقوبه. يلتقي دفء جسده
الذي كان ببرودة الأرض التي ستظل.
في صباح اليوم الموالي، تناوب سكان المدينة على
سحل جثة (الإرهابي) الذي كان يقطع رؤوس من يُحكّم
عليهم بالكفر، يضمّها في حبل ويعلّقها كعقد حول عنقه.

يارا

السادسة صباحًا، انسلت يارا من السرير على رؤوس أصابعها، مُتفادية شغب الملاءات البيضاء. كان الصباح العُزّ يناديها ليعلن استسلامه لدفقة الضوء المُتكَسّر، ولتعلن هي بداية دهشتها.

الدهشة لا تحتاج إلى مكُونات كثيرة: كوب قهوة داكن، أسود ومُرّ. قطعة حلوى. رائحة انعقاد البن والهيل. غليان الدم. فوران الأسئلة. نغم هادئ لأغنية فرنسية لا تعرف معناها، ولكن إيقاعها يرشُّ بهاراته في الأرجاء. لا يعكّر صفو المشهد غير ألم لاذع أسفل القدمين، لسبب وراثي على هيئة تشقّق لم تُفلح الأدوية والمُرطبات والزيوت في التخفيف منه إلا قليلًا، قليلًا جدًّا.

فتحت النافذة. إطلالة كالسحر: البحر بلونه المُتموج يشعّ تحت وطأة الشمس التي تتمايل بدورها خلف غيوم هشة كغزل البنات. أشجار الدفلى المرّة تعانق النسيم الحلو

القادم من بلاد بعيدة. أسراب السنونو تهَمَّ بالتحليق على شفة السؤال، والرمل يمارس اللمعان كما لو أن قارورة زيت تكسّرت سهوًا عليه.

تفصلها عن الدخول إلى كل هذا الانسكاب خطوة. خطوة واحدة، وتلامس قدمها الرمل الدافئ اللذيذ، وتنسكب الأشعة الصفراء المواربة على جسدها. أخرجت نصف جسدها، وما إن لامست قدمها الرمل حتى جاءها الصوت من خلفها:

«ألا تملّين؟ هل سنُعيد هذا السيناريو كل يوم؟»

«لا يمكنك أن تحظر خيالاتي. أستطيع أن أرى أن ما وراء النافذة مجرد طريق ترابي تتناثر عليه الأوساخ والأشواك، كما أن سُعالي يذكّرني بأن الطقس وراء النافذة مُغَبَّر ويدعو إلى الاختناق».

اقترب منها، واضعًا عينيه في مرمى بصرها، وقال:

«ليست المشكلة فيما يوجد وراء النافذة. المشكلة أنه

ليس ثمة نافذة».

غادرته بهدوء. عادت إلى سريرها وجلست على حافته،

تحاول التخلص من حبات الرمل العالقة في شقوق قدميها.

جهينة

في حياة جهينة، كان الركن المُخصَّص لوالدها في ذاكرتها شبه فارغ. ركنٌ خفيف، غير مرتَّب؛ لأنها بطبيعة الحال لم تكن تحتفظ بسفاسف الأحداث، كما أنها تخلَّت منذ زمن طويل عن ثقل الحنين. أقرب تشبيه لذاكرتها الآن هو أنها غيمة خفيفة بلملمس القطن النقي، وهشة كخبز خرج لتوّه من التَّنور.

كانت أصابعها باردة معظم الوقت، وكلما انتبه والدها لذلك، ضمَّها بين يديه ومنحها حفنة دفء.

في شجاره مع أمها، كانت جهينة تنحاز إليه دائماً؛ فغضبه، الذي كان يترجمه بلكمات على الجدار، كان أشد وقعاً عليها من دموع أمها وصوتها المرتفع ونظراتها الحادَّة التي كانت تنتهي بالدعاء على نفسها بالموت. ولا تزال جهينة حتى اللحظة مُنحازة إلى يديه المملطختين بالدماء بعد عراقك طويل مع الحجر.

أسوأ هداياه كانت شالاً قدّمه لها عندما بلغت التاسعة
وطالبها بارتدائه، ففعلت دون معارضة. أما أجمل الهدايا
فكانت ثلاث دمي بعيون زرقاء وشعر أشقر، تمكّنت
بواسطتها من ردّ بعض اعتبارها بين فتيات العائلة اللواتي
أخذن يتزلفن إليها ليشاركنها اللعب بالدمى الشقراوات
الثلاث. ولا تزال حتى اللحظة كل واحدة من تلك الدمى
تركض في سرايينها كضوء دافق.

اصطحبها والدها في زيارات عائلية كثيرة مقيمة، مملّة،
ومليئة بالنفاق. وكان عزاؤها الدائم هو الطريق الذي
سيجتازانه: هو سيراً على الأقدام، وهي سيراً على سمفونية
الظلال البرتقالية بتوقيت غروب القرية الأسر، وأيضاً سيراً
على الألحان. كان والدها يصل إلى الدار مبحوح الصوت،
كأنه قطع المسافة سيراً على حباله الصوتية، فقد كان يغني،
وكان له صوت عذب ورقيق كالمطر المُنهمر على تربة
عطشى.

في المساء، كان يحكي لها ولإخوتها الحكايات
مصحوبة ببعض الأغاني. في الحقيقة، كانت حكاية واحدة
وأغنية واحدة يعيدهما على مسامعهم دائماً. كانوا يستمتعون
بالحكاية في كل مرة كما لو أنها المرة الأولى، ويتدمرون

مع نهاية الأغنية كما لو أنه لن يعيدها غداً، وبعد غد، وإلى ما لا نهاية.

أما أبطال الحكاية فكانا عبلة وعترة، ولكن بتصرف يتناسب مع إصغاء أمها التي كانت تغزل كرات الصوف على مقربة من سهرتهم.

ففي روايته، كان عترة عاشقاً لعبلة، كما أنه كان أشقر بعيون عسلية، فتياً، قوياً، شجاعاً، مقداماً. أما عبلة فقد كانت سمراء، قصيرة، نحيلة، بأسنان ناصعة البياض. وكان عترة يستدل عليها من ضحكتها عندما كانا يلتقيان خلصة في الليلة الظلماء، خاصة أنها كانت تتسربل بعباءة سوداء وحجاب أسود.

نعم، في رواية والدها، كانت عبلة مُحجَّبة، وكان عترة، على جماله ووسامته، فقيراً. فكانا كلما التقيا سرّاً وبثّ سوء حاله، غنّت له عبلة: «عالبساطة، عالبساطة... تغدّيني خبزة وزيتونة وتعشّيني بطاطا». كان والد جهينة يعيد الأغنية أكثر من مرة، بينما كان يأخذها جمالها وجماله وجمال الموقف، وجمال عيني أمها التي تتربص بوالدها؛ خاصة أن القصة برمّتها لم تكن أكثر من إسقاط على حكايتهما، فقد كان والدها أشقر وأمها سمراء، وكان يعتبر سُمرة بشرتها عيباً

يُنَاكفها به بطريقة غير مباشرة على شكل أغنيات أو حكايات
أو نكات في وقت جدّلهما.

فيما بعد، كان صعباً على جهينة أن تصدّق قصة عبلة
وعترة الحقيقية، وأن تقتنع أن عترة لم يكن سيّداً لطيفاً
بعيون ينسكب البندق منهما، وبشعر أشقر طويل منسدل
على كتفيه كشلالات عسل. وكانت الصدمة الكبرى عندما
رأت صباح بقامتها الفارعة وجمالها الأخاذ وصوتها المُنعم
تصدق بأغنية: «عالبسطة، البسطة».

اليوم، بعد سنوات بعيدة وطويلة، وبعد رحلة ممتدة مع
القصص والروايات والشعر، لا تزال جهينة كلما سمعت
بعترة وعبلة، تستحوذ على مُخيّلتها صورة عبلة بأسنانها
البيضاء الناصعة كالبرق، بردائها الأسود الطويل وشالها
المُخرَز، وهي تصنّف بروية وتغني (عالبسطة) في الفسحة
المُظلمة وراء الخيمة.

صابرين

في هذا العمر، لا يُولد الحزن دفعةً واحدة، بل يتكوّر
ككرة صوفٍ في يد قطعةٍ عابثة.

القط يتلهّى، لا يعلم أن مخالبه تُمزّق الخيوط التي
بينه وبين العالم. والكرة؟ تظن نفسها مركز الكون، إلى أن
تكتشف غبار الزمن بين ثناياها، وتجد خيوطها قد بدأت
تتهالك، واحدةً تلو الأخرى.

صابرين كانت تعلم ذلك. كانت تدرك أن الإنسان، في
دورة واحدة من الحياة، قد يكون القط صباحاً... والكرة مساءً.
في ذلك الصباح، شدّت خمارها الأسود، وغرزت
الدبابيس بقسوةٍ في رأسها كما لو أنها تغرز توبتها في
جلدها. الدبابيس كانت على شكل قلوب حُب. الحب...
قاسٍ وأسود!

خرجت مُسرعة، يلاحقها تأنيب صلاة فاتتها، وأملٌ
بأنها ستبدأ الغد بضمير أكثر يقظة.

لحقت بالحافلة، وجلست قرب النافذة. في الزاوية العلوية، علّقت لافتة سوداء كُتِبَ عليها: (اذكروا الله). رائحة البخور كانت كثيفة ككذبة قديمة. دفعت بالخمسين ليرة إلى زوجة السائق، ووضعت يدها على صدرها، وتلت المعوذات.

لم تكذّ تنهيتها حتى بدأ حديث النسوة...

صوت جليلة، التي اعتاد الجميع تلقيها بـ(الرايو)، اخترق السكون: «تلك الأرملة... رفضت الزواج من رجل وجيه. قالت إنها لا تزال حزينة على زوجها، والحقيقة؟ إنها تحب أخاه منذ زمن!»

«قبل استشهادها كانت تتغزلّ به، والآن تسعى لتدمير

زواجه. تخيلوا الوقاحة!»

شهقات النساء كأنها صفارات إنذار. استنكارٌ مُقدَّس.

غضب جماعي.

وصابرين تغرق شيئاً فشيئاً في ذاكرة تتنفس الخذلان.

تذكرت أختها زوجها، الذي عرض عليها زواجاً مشروطاً بورقتها الوحيدة:

قطعة أرض صغيرة. وحين رفضت، تركها وحيدة مع

طفلين، جائعين كحلْم مكسور.

أكملت أم العبد، بعينين مليئتين بفضول الذباب: «تتودد لكل رجل في الحي. تُضحك اللحام، وتُدلل الخضري، وتستعطف الفران... والعياذ بالله!»

شدّت صابرين على كيسها. تذكرت تلك الهدايا التي جاءت بعد وفاة زوجها: لحم، خضار، حتى قطع ذهبية... أعادتها كلّها. ليس لأنها فاضلة تمامًا، بل لأنها خافت من ثمنها المجاني.

تدخلت أم أحمد بنبرة فيها يقين الواعظين: «كان لديها أرض! لو زرعتها لاغنت. لكنها اختارت الوظيفة ذريعة للخروج. تبرج! تضحك! أهملت أولادها! هجرت أهل زوجها!»

كان الحديث يتضحّم، ككرة لهب تندرج في ممرّ الحافلة.

وصابرين تستمع... تتحوّل من قلب نابض إلى رماد مرتجف. لكن داخلها صوت خافت يشبه رجاء الأرامل: لمّ لم يبعث الله في طريقها رجالًا كالذين وقفوا بجانب تلك الأرملة المجهولة؟

أهي أقلّ منها؟

أم أن البلاء يُوزَع دون عدل؟

قبل وصول الحافلة، التفتت صابرين إلى المرأة التي بجانبها، وسألتهما بحدّة مكبوتة: «من هي تلك التي يتحدثون عنها؟ تلك... الفاجرة؟»

رفعت المرأة عينها وقالت باستغراب: «ألسيت تعرفينها؟ الجميع يتحدث عنها!»

هزت صابرين رأسها بانفعالٍ ممزوج بخوف غير مُبرّر. ابتسمت المرأة ثم تمتمت: «إنها الأرملة التي تسكن في البيت بسفح التل... نسيت اسمها... كا...ن»

سألت صابرين: «ما كان اسمها؟»

جاء صوت النسوة من الخلف جماعياً متماسكاً بارداً قاسياً... كأنه حكم محكمة لا يُستأنف: «صابرين».

خلود

سأروي لكم قصة:

في يومٍ من الأيام... هنا سنتوقف قليلاً.
أعرف ما تفكرون به. ها أنتم تهمسون لأنفسكم الآن:
«ما هذه البداية الرديئة؟ حتى تلميذ في الصفّ الثاني لن يبدأ حكايته بهذه الجملة (الكليشيهية!)» ومن تبدأ قصتها
بـ(في يومٍ من الأيام)، غالباً ما ستنهيها بجملة من نوع:
(وعاشوا في ثباتٍ ونبات...) ولا مفرّ من أنّ معظمكم الآن
قد صنّفني ضمن كاتبات (الدليفري)، اللائي تأتينا الحكاية
منهنّ مُغلّفة، مطبوعة مُسبقاً، باردة، بلا بهارات، ولا حتى
منديل مجاني. ولكن، ماذا أفعل يا أصدقاء؟ إن كانت القصة
السادجة حقاً وقعت في يوم، ويا للخيبة! لا أذكر تاريخه أو
ترتيبه بين أيام الأسبوع...

لذا... في يومٍ من الأيام، اندلعت معركة درامية بين
خلود وأختها الصغرى. السبب القريب: تهرب خلود

من نوبتها في جلي الصحون. ولن أُصدِّع رؤوسكم الآن
بالأسباب البعيدة التي لا يعلمها إلا الله. انتهت المعركة
بخسارتها، كالعادة. وحصيلة المواجهة: خرمشة في الوجه،
خصلة شعر مقطوعة بطريقة لا تمت للفن التجريدي بصلة،
وساعة سحرية على معصمها كمزاج المراهقات تتقلب
ألوانها تبعاً من الأخضر إلى البنفسجي إلى الأزرق النيلي،
ثم أصفر باهت، وأخيراً تذوب في دورتها الدموية مُتحوّلة
إلى كرية بيضاء. لا تتأثر خلود عادةً بما ينال جسدها من
كدمات؛ والذين عاشوا تجارب ضاربة في الحوادث يدركون
أن الألم لا يُقيم طويلاً في الجسد، بل يعبره كما يعبر الطيف
الجدار. الخدّ يتخدر بعد الصفعة الثانية، وأقصى السياط هي
الأولى، تلك التي تُعدّ على أصابع اليد. وكلّ ما يليها يسقط
بالتنميل. الطعنة الحادة لا تؤلم بقدر ما يُرعب منظر الدم
المتفجر من الجسد. والوجع الحقيقي قد يتمثل بشوكة في
موقع استراتيجي من القدم، أو نثرة خشب تحت الجلد.
وفي حالة خلود استقرت تلك النثرة في قنوات سمعها
حين صرخت أختها، بعينين مليئتين بيقين الطفولة وبراءة
لا تعرف كيف تتجمل: «أنت بشعة، وأنفك مثل الباذنجان
المبذر!»

وفي لحظة، تهدّمت أبراج الثقة التي كانت خلود قد بنتها في نفسها بمكعبات ملونة.

تساءلت: لماذا لم تقل لي غبية، كسولة، بقرة، أو جردونة مثلاً؟ لماذا يصبّ الإنسان غضبه في ملامح الآخرين؟ ولماذا يصبح وجه الآخر، فم الآخر، كرش الآخر، ساحة المعركة الوحيدة الممكنة؟

رمت فقرة (أنتِ بشعة) وراء مشاعرها، فكلّ بنات حواء جميلات بالضرورة. ولكن أن يُشبّه أنها بـ(الباذنجان المُبذّر) فهذا ما لن يمرّ مرور الكرام.

وقفت للحظة بلا حراك. لم تفهم: هل أُهينت ملامحها، أم أُعيد تصنيفها ضمن قائمة الخضار؟ هرعت إلى المرأة كمن اكتشفت خيانةً في منتصف وجهها. كانت تبحث عن نجاة شكلية، عن طمأنة سريعة تقول لها: «لا، أنفك بخير، ليس باذنجانياً على الإطلاق!» أدارت وجهها قليلاً، ثم كثيراً، يمنةً ثم يسرةً.

حدّقت، اقتربت، ابتعدت، حبست أنفاسها، لعلّه ينكمش. وفي كل الإطلاقات، كان أنفها يبدو واثقاً، جالساً في مركز وجهها، كما يجلس ديكتاتور في قصره: ممتلئاً، مرتاحاً، غير قابل للتفاوض.

وعندها أضافت القرار التالي إلى قائمة القرارات المؤجل تنفيذها، حتى تصبح في عمر يسمح لها بتقرير مصير جسدها: ستجري عملية تجميل للأنف.

وإلى ذلك الحين، ستتعامل مع المصيبة في وسط وجهها كما تتعامل الحكومات مع الجماعات المعارضة: يخدعونها بامتيازات وهمية، يسايرونها، يُدللونها... وكل ذلك بشرطٍ واحد: ألا تتجاوز المعارضة حدودها وتتفطّح. لم تكن خلود وقتها على معرفة جيدة بقوانين العقل الباطن والأعيه، لذلك وقعت في الفخ، وجذبت كل الأحداث السلبية التي وطّدت العلاقة المتوترة بأنفها. هل تتخيلون مأساة أن يحمل إنسان عدوّه في وجهه، مُشرباً بأرنبته، وقد تنبت له يدٌ تلوّح له مرحّبة: «Hello, I am here».

صدقوا أو لا تصدقوا، لكن أنفها كان يحييها في المرأة، شامتاً أو مُتجهماً. وفي أحيان كثيرة، في ساعات هناعته، كانا يخوضان أحاديث لطيفة، مع الحفاظ على مسافة عداوة آمنة بينهما. وكما لو أنه أدرك حقيقة مشاعرنا نحوه، رد بطريقته الخسيسية: التهاب جيوب أنفية، حساسية موسمية، زكام، سيلان، عطاس... شوّه علاقتها بالربيع وروائح العظرية، وتعاون مع العصب الدماغي الثالث لافتعال نوبة صداع

نصفي كلما نفذت رائحة عبقة إلى منخرها الأيسر، كانت خلود حرفياً في مواجهة مؤامرة كونية.

وبعد سنوات قليلة، بلغت السنّ الذي يسمح لها بإجراء العملية. ولكنها جَبُنَتْ، وأخذت كل مخاوفها تتراقص أمامها كجوقة باليه، تتناوب في أداء حركاتها بانسيابية مُفرطة، لم تمنعها من أن تكون فجائية أيضاً. فجأة، خطر ببالها أن الطبيب مجرد ممرض زور شهادته الطيبة. وفجأة، بزغت ست عشرة فرضية للفشل، وأخذت تسبح حول رأسها كأقمار المشتري. وخطرت لها فكرة تلخص في إقناع صديقاتها بإجراء عمليات لأنوفهن، لنتخب - وفقاً للنتائج - الطبيب الأمهر في نحت الأنوف. وبعد فترة من التردد، وجدت نفسها في عيادة الطبيب المُختار، الذي قال لها بعد الفحص: «عظمة الأنف تُشكّل نتوءاً بارزاً قليلاً، وبدوري كطبيب، لا أرى داعياً لإجراء العملية، ولكن إن كنتِ مُصرّة..». أنهيا النقاش الطويل بتحديد موعد للعملية، تخلفت عنه لأنها - فجأة - خافت من حُقنة البنج، وكسبت بالمقابل عدواً صغيراً جديداً: عظمة الأنف.

واستمر الحال لسنوات طويلة على هذا المنوال. أصبح لكل صديقاتها أنوف جميلة لا تكاد تُرى، وتصالحت خلود

بدروها مع العدوّ الباذنجانى . حتى إنها لم تتخذ أي إجراء، عندما عرفت لاحقاً أن ثمة عضوين في جسم الإنسان يستمران في النمو حتى الموت، وهما: الأذنان أولاً، وطبعاً، ثانياً: السيد أنف.

في بداية عام 2025، وضعت خلود قائمة طويلة جداً بأهداف العام الجديد. هي القائمة ذاتها منذ عشر سنوات، ولكن لا بد من فعل مماثل، حفاظاً على (بريستيج) السنة الجديدة. أهم ما جاء في ميثاق الأهداف:

* العودة إلى القراءة والكتابة.

* إجراء عملية تجميل. قرار نهائي، غير قابل للطعن.

عادت إلى القراءة مُتسلّحة بالصدفة. لم تختَر الكتب، بل اختارتها. وعليها أن تقتنع الآن، إنه ومن نافذة الصدفة، كانت أول قصة تخترق حوار زميات القراءة وتنطّط أمامها كجنيّ: (الأنف) لغوغول. بعد الانتهاء منها، كانت تمسك أنفها على مائدة الطعام، خوفاً من أن يقع في زبدية الشوربة. ثم ماذا لو عاشت نفس معاناة كوفاليوف واستيقظت ذات صباح لتجد أن أنفها قد هرب؟ تخيلت وجهها دون عدوها العزيز فذعرت من المشهد. ولكن لا، لن تضعف الآن. ستقرأ كتاباً آخر، فكل كتابٍ يُلغي أثر ما قبله. فكان النص

المُنقذ عن قرية يُصاب أهلها بالجذام. وماذا سيخطر في بالنا عند ذكر الجذام؟ نعم، صحيح: الصَّلع، أطراف تتساقط، وبالتأكيد... أنوف. فجرت هاربة كالملسوعة، وتعثرت برواية أخرى.

بحثت عن الشاعر في الرواية؛ فإذا به فاقدٌ لحاسة الشم بعد حادثة مقتل صديق صديقه أمامه. هل يموت أمامنا شخص نراه لأول مرة، فنفقد حاسة الشم كرد فعل فيزيولوجي على ذلك؟ هل يحدث هذا في العادة؟ بكل الأحوال، هكذا ارتأت الكاتبة.

ثم جذبها غلاف رواية تحمل عنواناً عابقاً برائحة البازلاء المطبوخة. في الحقيقة، كان واضحاً من الغلاف أنها نيئة. ولكن البازلاء إحدى وجباتها الحميمة، ولم تستطع تخيلها تنبت من كفٍّ أو حقلٍ أو سماء... تخيلتها تنبت في صحن بورسلان أبيض، مع الأرز والبهارات واللحم... يا للذة! ومجددًا، وقعت في الفخ، أو في الصحن، لا فرق. فبعيدًا عن كل الأعطاب التي قد تُصيب أبناء آدم، اختارت الكاتبة لبطلتها أن تكون مُشوّهة بأنفٍ عملاق ضخم. فأغرقها عقلها في خيالات وكوابيس، كان المشهد الرئيسي فيها: حبة بازلاء تنبت في أرنبه أنفها.

ولكن، بعد كل هذا، لا بأس. فالبشر يتعلمون من تجاربهم، ينضجون بها، ويستوون. ومع أنها لا تمارس الندم، مُتَحَصِّنة بمقولة أندريه جيد: «الندم هو الخطأ الثاني الذي نرتكبه»، إلا أن ندمها الوحيد الحقيقي الآن هو: عدم التزامها بنوبتها في جلي الصحون في (يوم من الأيام).

سريّة

لا شيء يُفسّر هنا.

الخميسُ مثلاً، لا يأتي في مواعده، بل يتسلّل من ثقوب الأبواب المُخلّعة كقطّ مشبوه، حاملاً معه رائحة البن المغلي وندوب الأسبوع. وفي كل خميس، تنهض دائراً، في حارة ما، وتفتح ذراعها للنساء. نساء بأصواتٍ تشبه تسرّب الماء في جدران قديمة، بأردافٍ مُثقلة بالأسئلة، وعيونٍ تستنجد بمرآةٍ منسية خلف المغسلة.

من قال إن الحياة تبدأ عند الولادة؟ كانت سهيلة تظن أنها تبدأ عندما تُضطرّ للجلوس بين نساءٍ لا تدري إن كنّ أمهاتها، أم نسخاً أخرى من ندوبها.

كانت تأتي، كل خميس، لا رغبة في القهوة ولا في قراءة الفنجان، بل لرؤية تلك العجوز التي يُقال لها (الجددة). الجدة التي يلمع وجهها كما لو أنه مغسولٌ بالحليب، وتوزع القُبلات كأنها تملك بنكاً صغيراً للغفران.

الجميع ينادونها (ستي فطوم). أما سهيلة، فلا تدري ما الذي منع لسانها من تكرار هذا الاسم، كأن بينها وبين تلك الحروف عهداً عتمةً طويل.

تهرول النسوة نحوها كأطفالٍ فرّوا من قسوة الصباح. يرتمين على حِضنها كما لو أنه غيمة. توزع الضحك، وتنهى عن العقاب، وتقول بصوتٍ محلّى بالسُكَّر المُعتق: «لا تضربوا أولادكم. دعوا الحبَّ يربّيهم. الحبُّ هو النحات الوحيد الذي لا يترك ندوباً».

فتضحك سهيلة. ضحكتها صفةٌ مؤجلة لوجهٍ لا تذكره جيداً.

ثم تعطي طفلة ممتلئة كعكةً ساخنة، وتقول لأمها: «الأجساد لا تُعَيَّر. هذا جسدها، لا تنزعوا عنه كرامته. الكرامة هي أول ما يخلعه الطفل حين يُعاقب على شكله». الجميع يُصنِّق. الجميع يؤمن. الجميع يرى في الجدة فطوم قديسة بلا مذابح.

أما سهيلة، فكانت تراقب. وتعدّ المرات التي قالت لها فيها أمها إن وجهها يشبه قرداً ميتاً، أو أنها سمينة مثل كيس بطاطا، أو أن البنات القبيحات يحتجن للكتب حتى لا تلتهمهن العنوسة مستقبلاً. كانت أشع كوابيسها: علامة

ناقصة في دفتر الوجود.

تتذكر يداً كانت تقرصها وهي تغسل الصحون، وأخرى
تسحب شعرها لأنها بكت من وجع في بطنها. ووجهًا...
وجهًا يشبه وجه فطوم الآن، لكنه كان كالصخر إذا صرخت.
كانت أمها، ستي فطوم، هي ذاتها الهاوية التي تحاول
سهيلة تسلقها الآن.

في أحد أيام الخميس، جاءت باكراً. كان الصمت لا
يزال نائمًا في زوايا الدار. رأتها من بعيد تمسح البلاط.
(الجددة؟) لكنّ الجددة لا تكنس. الجددة لا تركع. الجددة لا
تمسح قذارة البشر عن الأرض.

اختبأت سهيلة خلف عريشة العنب. لا لشيء، فقط كي
لا تنظر إليها بعينها، فتذكر. «لو أن أمي كانت مثلها..».
لكنها سقطت فجأة. حرفيًا، سقطت. تعثرت بنبات
(الأرضي شوكي) الذي ينمو على حافة القرميد الأحمر.
جاءت فطوم راكضة. وضعت يدها على جبينها وقالت
بصوتٍ لم يكن مُحلى بالسكر: «يا بنتي... هل تأذيت؟»
تجمدت سهيلة. لم تقل شيئًا. كانت تحاول تذكّر آخر
مرة ناداها فيها أحد بـ(يا بنتي) دون تهديد أو أمر، دون أن
تتبعها صفعًا أو إهانة.

في فنجان القهوة ظهرت غيمة وطفلة تركض، وامرأة تصرخ. لم يكن البن بحاجة إلى من يقرأه؛ كان يقرأها وحدها. كل خط فيه يسحبها إلى أيام كانت فيها مشروع ضحية. كل ليلة كانت تقول فيها: «سأهرب». لكنها لم تهرب.

ظلت هناك، في الزاوية. في المطبخ. في حفرة تشبه حوضاً نكرَ الحنان.

وفي مساءٍ بلا خميس، جاءت ابنة أختها. قالت وهي تقضم تفاحة خضراء: «أعتقد أن (ستي فطوم) مريضة». ثم تمت وهي تنظر في عيني سهيلة بعد أن طال صمتها: «ألا تهتمين لصحة أمك؟!»

نظرت إليها سهيلة كأنها ألقت عليها تعويذة. «أمها؟ من؟ فطوم؟»

كانت تلك اللحظة مثل سقوط مقص في حوض من البلور. أدركت فجأة أنها لم تهرب منها أبداً. بل جلست عند قدميها طوال هذه السنوات، تنتظر أن تعترف، أن تبكي، أن تعتذر. أن تخلع قناع الجدة القديسة وتعود إلى وجه الأم الصخرية.

لكنها لم تفعل.

الذاكرة اختارت لها دور الجدة، ونجت من المحاكمة. أما سهيلة، فبقيت تعدّ سنوات الألم على أصابع قدميها، وهي ترى كيف يمكن للجلاذ أن يعيد تشكيل نفسه في صورة ملاك.

في الخميس التالي، جلست سهيلة قرب فطوم. مسحت على يدها كما تمسح الأمهات الطيبات على جباه أطفالهن قبل النوم. نظرت في وجهها طويلاً، ولم تقل شيئاً. كانت تودع الأم الحقيقية في داخلها.

الخميس الأخير، قدّمت لها فطوم فنجان قهوتها. وقالت بابتسامة عتيقة: «يلا يا بنتي... خرينا نفتحك الفال». نظرت سهيلة في البن، فرأت نفسها. طفلةً على كرسي، وامرأة تقطع جدائلها. رفعت عينيها إليها وقالت بهدوء قاتل: «الزمن لا يخبئ شيئاً يا أمي. كل ما في الفنجان هو ما زرعت».

ضحكت فطوم، وقالت: «مجنونة أنت، مثل أمك». ولم تعرف... أنها هي.

رفيدة

انتشرت العدوى.

في الظاهر، حادثة مُزعجة، وفي الخفاء، مناسبة نادرة لاجتماع النساء حول هدف مُشترك. فلكل أم أن تتقمّص -ولو لساعة- دور المحقّق وهي تقتفي أثر قملة تتخفّى بين خُصل شعر ابنتها... ومن دار الحاجة الهتون، خرجت الدعوة على لسان خادمتها: «الجمعة بعد الظهر... حفلة تلفية القمل في ساحة البيت الكبير».

ذلك اليوم، كانت الشمس حارّة كحبة مشمش أوشكت أن تنفجر بحلاوتها، ترسل حرارتها على الرؤوس كما لو أنها شريك خفي في الصيد. الأمهات لا يباليين إن خرجت بناتهن برؤوس صغيرة صلعاء؛ فالمهم أن يُحسم النزال مع العدو الصغير المراوغ.

في الحديقة، شكّلت النسوة دائرة واسعة. في قلبها، موقد حجري تعلوه قُدور نحاسية يتصاعد منها بخار منقوع

أوراق الكينا والحناء. على الأرض، زرابي ملونة، وأمشاط خشبية دقيقة، وقوارير كيروسين، وأقمشة قطنية. كان كل شيء جاهزاً.

أما الصغيرات فجلسن على الهامش، يتبادلن النظرات، ويتخيلن ما فاتهن من مغامرات هذا اليوم: لعبة (بيت البيوت)، مراقبة دود الربيع، جمع شقائق النعمان وبيعها للعم أبو رامي مقابل مصاصات وشوكولاتة وقراطيس رقائيق بطاطا. رحّبت الهتون بالوفادات، ووَزَّعت الخادمة الشاي الأسود وكؤوس الزهورات الساخنة. ثم رفعت يدها إشارة البدء. جلست رفيده خلف ابنتها، وبدأت تقسّم شعرها بخفّة وخبرة، لتُغلِّغ منقوع الأعشاب في كل خصلة.

انحنت، وراحت أصابعها تنقّب فروة الرأس. ومع كل خصلة ترفعها، تداخلت الحركة الرتيبة مع موجة خواطر اجتاحت عقلها: «ما ذنب القملة الأولى؟ أليست كائناً يبحث عن مأوى؟ لو كنت مكانها، أما كنت سأتمسك بمكاني حتى آخر رمق؟ هل تدري أنها تؤذي، أم تراها تعيش بوهم الحق في البقاء؟ ربما هي الوحيدة التي تحتفظ بذاكرة وطنها... ذاكرة نجت من مجزرة تنظيف سابقة، ثم ألقته الصدفة في رأس جديد».

والبيوض الملتصقة بالبُصيلات؟ تراها تعتبر هذا الرأس
موطنها الأبدي، ترى الحفر في الفروة نضالاً، والأظافر
غزواً، والشامبو طوفاناً، وروائح الكيروسين والمُطهّرات
تلوثاً خانقاً...

هزّت رأسها، كما لو أنها تريد طرد هذه الصور، ثم
عادت إلى مهمتها، تمشط وتفتش وتلتقط.

في الحلقة كانت الأحاديث تتدفق: نيممة تشابك مع
ضحكات، ورائحة الشاي الأسود تمتزج بأنفاس الأحاديث
المُتصاعدة، وأريج الشيخ والزعر البري يتسلل من شقوق
الجبل.

من خلف أشجار الزيتون والزعرور كان بعض الشبان
يراقبون المشهد، مأخوذين بفضول صامت، ينتظرون
انكشاف ساق أو انزلاق ثوب، أو سماع حكاية عشق مُحَرّمة.
بلغت نشوة إحدى النساء ذروتها، فصدحت بموال
طويل. ردّت الحاضرات بأهات، وعدّلت جواهر الإيقاع
بضربات على وعاء نحاسي، فانطلقت فاطمة تغني للياسمين
والأهل، والجوقة تردد خلفها:

«ياسمين الشام على خدك
وحلاوة العسل من شهدك، اسم الله، قمر».

عندها نهضت مرجان وسط الدائرة، ربطت خصرها
بوشاحها، وارتفع الإيقاع. انكشف فخذ، وتملّص ثدي من
فتحة ثوب، وتمايلت الأجساد على حافة نشوة، فيما التصق
القماش المُبتل بالبرد على الجلود، فأصبحن كما لو أنهن
كاسيات عاريات.

المتلصصون لم يُدركوا أنهم مكشوفون، ولا أن المشهد
كله لعبة مُرتجلة تُتقنها نساء يعرفن غريزة الإغراء.
وفجأة؛ هدير صاخب، فوميض، وانفجار.
ثم صمت ثقيل، لا يُسمع فيه إلا طنين الفراغ.
وفي نشرة الأخبار: «استهدف صاروخ قرية دارة عزة،
المُتوضعة على قمة جبل سمعان... كقملة».

نورا

في صغرها، كانت نورا بدينة وقصيرة القامة، مما جعل إخوتها يطلقون عليها لقب (دعبولة)، وسرعان ما شاع اللقب بين الأقرباء والجيران. لتجنّب سماع كلمة (دعبولة) وهي ترن في الأرجاء مع تركيز كثير من العيون عليها، كانت تتجنب أية مشاجرة أو مناكفة. ولأنّ إلغاء المشاجرات بين الأطفال أمر صعب، قررت هي إلغاء الأطفال من حياتها. لتملأ وقتها الذي كان يسير بها عنوة في الزمن، اكتفت نورا بنشاطات فردية: كخياطة ملابس لدميتها الوحيدة ذات العين المقلوعة، ومراقبة حركة سير النمل، والتلصص على ذبابة تفرك يديها، ونحلة تتمرغ في رحيق الطلع، ومحاولة خطف صوص من أمه، والعناية بالجدي الصغير، ومحاولات نجحت أخيراً في الصعود عبر سلم خشبي إلى السطح. لكنها علقت هناك؛ فالنزول صعب والسقوط مؤلم.

في لعبة (بيت البيوت)، كانت دائماً خادمة المنزل. وفي مسرحيات المدرسة، كانت دوماً الدب، ومرة واحدة كانت البقرة اللطيفة. كانت تراقب بحسرة الأميرات وصديقاتهن والقطة وخادمات القصر والساحرة، بينما كان ذكاؤها -الذي يفوقهن جميعاً- يسقط أمام سخريتهن من جسدها. حتى معلمة اللغة الإنجليزية، في لعبة (الصفة والموصوف)، وبعد أن اجتازت صفات (الأجمل) و(الأطول) و(الأسرع)، قالت: (الأسمن!) فرد الجميع بصوت واحد: «نور!!!!!!»؛ كانت المعلمة تحب الفكاهة.

في زيارة لجارتهم كان الضحك يغمر بناتها، ويبررن ذلك بأنهن لا يتمالكن أنفسهن كلما رأين شخصاً سميناً. لم ترتدِ نورا أبداً الفستان الحريري الذي حلمت به، واقتصرت ملابسها على القطن والنايلون المعدل، بينما زهت أختها بأبهى طلة.

تنادي الأم عليهن لإلقاء التحية على زائرة جديدة، فتتقدمان أولاً، ثم تُقدِّم نورا بعبارة: «إنها الأولى على المدرسة»، وكأن الأم تنفي بذلك تهمة القبح عنها. على المائدة، يقول الأخ لبناته: «لا تأكلن كثيراً حتى لا تصبحن مثل عم تكن». ينظرن إليها بريية، يتسمن بهاء،

ثم يتوقفن عن تناول طعامهن، بينما تكمل نورا طعامها بصمت.

أصبحت المأكولات رفيقها الوحيد في تلك الفترة، فقدت شعورها بالشبع. كانت تأخذ ما استطاعت من سكاكر وموالح وخبز، وتذهب إلى غرفة الخردة المنسية. هناك، في العتمة القاتلة، كانت تأكل وتبكي... تأكل وتبكي... تأكل وتبكي. مرت خمس سنوات وهي تزداد وزناً، ووحدة، وانطواءً، وخجلاً، وعزلة، ولا تزداد طولاً.

في العاشرة... وقفت أمام الواجهة الزجاجية لمتجر حلويات. سال لعابها أمام قطعة الحلوى المغموسة بكريما اللوز المخفوقة بالبندق وتعلوها حبة كرز متعرقه تلمع. قالت لأخيها: «أريدها»، فسحبها من يدها ومضيا بعد نظرة عتاب أشعرتها بالخجل.

أقنعت زوجة أخيها أمها بأن شعر نورا الطويل جداً هو سبب عدم نموها، فقصّ، واستولت زوجة أخيها على جدائلها وحولتها لوصلات شعر ألصقتها برأسها. اشتاقت نورا إلى شعرها في رأس زوجة الأخ.

في الثالثة عشرة... كان كل من حولها من الفتيات جميلات بنسب متفاوتة، وبات قلق العائلة يتمحور حول

إمكانياتها التي -حسب اعتقادهم- لن توفر لها فرصة زواج. في تلك البقعة البائسة من الأرض، كان الثالثة عشرة عمراً مناسباً للزواج. بدأت الأم تدسّها رغماً عنها في حفلات الأعراس، تلتطخ وجهها بمساحيق التجميل وتختار لها ملابس فضفاضة وسوداء. كانت تنسل من الازدحام، تبحث في صحن الدار عن زاوية معتمة تختبئ بها: تحت شجرة برتقال، أو حذاء بئر، أو خلف قنّ دجاج.

نجت بأعجوبة من سقطة كان يمكن أن تكون مميتة، وكانت أول عبارة سمعتها من الطبيب: «لو لم تكوني سمينة لما نجوت».

لم تحصل مطلقاً على رسالة حب بقلب يخترقه سهم. لم يُغرّم بها ابن الجيران، ولم يتتبع خطواتها أحد من الشبان المرابطين أمام أبواب المدارس.

في الرابعة عشرة... لا تدري إلى اليوم ماذا حدث، فخلال شهرين فقط تجاوز طولها 170 سم، وتهافت الأبطال، وبانت ملامح جمالها. كانت الفتيات يراقبنها بحسد، وغيره، وتهكم، وعدم تصديق، وأصبحت أمها تقدمها للزائرين دون أية (تبريرات). حتى ذكاؤها لم يعد لازماً.

في الخامسة عشرة... سمعت كلمة (بحبك) لأول مرة
في حياتها، فتمسكت بها بكل ما أوتيت من قوة، وحيل،
وأمل. صدقتها إلى الحد الذي جعلها تدفع ثمنها شكاً
دائماً، وهروباً، وتنكراً.

في الثلاثين... وقفت أمام قالب الحلوى دون أدنى
شهية نحوه. لن تخون المذاق المتخيّل لقطعة الحلوى
الممرغة بكريما البندق والمعمرة حبة كرز متعركة.

بعد مشي طويل خانتها قدماها؛ فارتمت على أول مقعد
صادفته. أصابعها ترتجف، وأصوات مشوشة، ودوار. قلبت
بصرها بصعوبة في المشهد وكادت تغيب عن الوعي. لكن
فتاة انتبهت لتشتتها، فاقتربت قائلة: «أنا دينيز». أمسكت يديها
المرتجفتين على عجاله، ثم أخرجت قطعة شوكولاتة من
حقيبتها ومدتها لها قائلة: «أعتقد أنه هبوط سكر». أجابتها
نورا بأنها لا تحب الشوكولاتة ولا تتناول أي سكر. انضم
شاب إلى الموقف، تلفت قليلاً ثم عاد بعد ثوانٍ ببعض ثمار
توت اقتطفها من شجرة قريبة. وكان السؤال الأهم هنا: هل
ثمة أحد لا يحب الشوكولاتة؟

تشعر نورا أنه ثمة حريقاً في الأضلاع السفلية لقفصها
الصدري. تجيبها صديقتها: «لم تنتهي ربما، لقد قمتِ

بتمرين المعدة ما يقارب ثلاثاً وثمانين مرة. كنتِ شاردة
وكنْتُ أَعِدُّ لِكِ».

هناك سخونة في معدتها تطفئها غالباً بالقهوة أو بحبة
فاكهة.

ملابسها بيضاء غالية الأحيان.

ليلاً... تتحصّرُ نورا لموعدها. ترتدي فتنتها، تمشط
شعرها، تغرق في روائحها، تنشر العتمة، تستلقي على
سريرها، تغمض عينيها، وتفتح الباب السري لذاكرتها
بهدوء. بانتباه تقطع الممرات السرية والدهاليز المتشعبة...
تجد نورا الطفلة هناك، متوقعة، منكفئة، خائفة، تنتحب بلا
صوت. تعانقها وتبكي معها في غرفة الخردة.

لبنى

حين استفاق من التخدير تجمّعوا حوله كأنهم ينتظرون معجزة أو جريمة مكتملة. يحدّقون في وجهه في ما تبقى منه، محاولين التنبؤ بلحظة الفزع المرتقبة؛ حين يكشف أن يده اختفت، بُترت، تبخّرت من جسده كما يتبخّر الشغف من زواج بائس.

في الزاوية جلست لبنى. لا أحد لاحظ غيابها، كما لم يلاحظ أحدٌ يومًا وجودها الكامل. كانت دائمًا (صاحبة الظل القصير)، ذاك الذي لا يحتاج إلى أعمدة الإنارة كي يستقيم. انزوت في ركن معتم، يُعيد للهواء شكله.

شمّت عبق المستشفى، ذاك العطر الغامض: كحول، ويود، ومطهّرات، ودم، وأزهار طبيعية. اكتشفت أن للظلمة رائحة، وأن الضوء - ذلك الملعون الجميل - يُعكّر صفوها. فتح عينيه على العالم، كمن عاد من حلم غير مكتمل. تحرّكت جفونه، فارتجف من حوله كما ترتجف شجرة

حين يصيبها أول برق في الخريف. أمّا هي، فقد حافظت على خفقات قلبها ثابتة. الدقة... الدقة أهم من الحب في لحظات الانهيار.

لم يبحث عنها، لم يلاحظ غيابها. لم ينظر إلى الفراغ الذي كان يُفترض أن تشغله، لم يصرخ حين رأى أن يده ليست هناك.

قال: «ماء». ولم يقل اسمها.

سعل، كاد يخنق. قالوا: «الحمد لله على السلامة».

ابتسم، تلك الابتسامة الرمادية التي تصلح لكل شيء ولا تقول شيئاً. لم يلاحظ غيابها.

كتمت أصواتهم بكبسة قرف. وتساءلت: بِمَ تشعر يده الآن؟ لا بد أنها خائفة، وحيدة، ومخوّنة.

ركضت، وصلت إلى غرفة الأعضاء المبتورة. سألت عن اليد، كأنها تسأل عن صديق سجين.

قال لها الطبيب، ببرود المهنة:

«مكانها الطبيعي؟ القمامة... أو، إن كنتِ رومانسية،

فلتدفيها».

لم تسمعه، كانت تحمل حقيبة كبيرة وذريعة أكبر. ناولها كيس النايلون الأزرق، ضمتّ اليد، فجرحها البرد.

في الشارع، مشت واليد في حضنها، فكّرت: نعم،
الطيب مُحقّق. لا يجوز وضع اليد في ثلاجة المنزل بين
البيتزا، وحلقات البصل، والبسطرمة.

وفي اليوم التالي اشترت لها ثلاجة خاصة فاخرة، ووضعتها
قرب سريرها، لكن التفاوض على مكانها لم يكن سهلاً.
بعد شجارات طويلة، اتفقتا على التناوب على الركن
الشرقي المشمس. اليد لا تحب الحرارة، كانت تتذمر كما
تتذمر العجائز من صوت التلفاز.

مرّت الأمد...

أحاطت اليد خصرها ورقصتنا بفرح على مرّ المناسبات.
عانقتها في وحدتها، وأستها في فشلها، تحمّلت مزاجيتها
المُفرطة. شاهدتا الأفلام معاً، وضحكنا على النكات
البذيئة التي تسرّبت إليهما من نافذة الجارة (المعلمة) التي
تُعدّ الأطفال ليكونوا رجالاً في النهار، وتُعلم الرجال كيف
يعودون أطفالاً ليلاً. أطفأت معها شموع أعياد ميلادها،
عانقتها في لياليها الكئيبة، واستفاقت على لمساتها في
صباحات باهتة. وأخيراً، استغنت عن حبيبها المعطوب في
سبيل اليد الباردة السليمة. ثم جمعت أيادٍ وأرجلا وأعيناً
وأصابع كثيرة، وأنشأت لهم بيتاً. أثّته بثلاجات.

كل عضو يسكن في ثلاجة أنيقة، لها اسمه، وحكايته،
ومصباحه الليلي. تستمع إلى سمرهم كل ليلة بانتباه هادئ:
«لقد كان لي جسدٌ رياضيٌّ يحسدني عليه كل شبَّان
المدينة»؛ تقول ذراع لاعب كاراتيه.

«أما أنا فقد كنت جزءاً من جسد مترهّل تبعث منه
رائحة العرق والكسل، قبل أن تحرّرني شفرات ماكينة الكبّة
من كل ذلك القرف»؛ تقول إصبع وسطي.
«كنت أسكن وجهًا حنطيًا منمّشًا نال سخرية الجميع»؛
تقول عين عسلية.

«كنت أحمل ثقل رجل يزن كرشه وحده وزن رجل
آخر».

وتفقهه الأعضاء على نكتة القدم اليسرى لسائق شاحنة
منسي، وتبتسم هي سعيدة بعائلتها..
تعلم الآن: كل الدفء الذي تمتّه، صار محفوظًا في
ثلاجات.

مريم

كانت السماء بنفسجية ككدمة على عنق امرأة لم تشتك قط، حين خرج من الأرض صوت لا يُشبه شيئاً. اختنقت الحقول، ولم ترفع صراخها. البيت، قرب أطراف القرية، كان مائلاً قليلاً، وشجرة التوت في الفناء بدت أقدم من العالم، تتدلى منها أوراق كأنها جفون نساء لم ينمن منذ أعوام. وتحتها، جلست النساء. كانت أجسادهن تتلاصق، كأن كل واحدة تحاول أن تسترجع حدودها من الأخرى. في المنتصف، رقصت مريم.

كانت جسداً يتهرب من السقوط. كل التفاف يشبه صرخة قُطعت من منتصفها. الشال، الذي اعتادت أن تدور به، صار يلتف حولها كثعبان يتذكّر ضحيته. لا إيقاع، لا نشوة؛ كان في الحركة شيء يشبه الغرق العمودي. من خلف الجدار وقف أيمن؛ لم يكن يراها فقط، كان ينظر إلى جدار نفسه من الخارج. كلما اقترب اتسعت

المسافة. أراد أن يناديها، لكنه لم يعرف إن كان ما في حلقه صوتٌ أو حفرة.

حين رآها للمرة الأولى شيء فيه تهاوى دون مقاومة. كانت وهجًا، ظلّ فكرة، رقصة خلقت من الرغبة في الأبوة، حاول أن يبيّن لها حاضرًا: شهادة، وظيفة، غرفة تطلّ على العالم، باب لا يطرّقه الخوف. خطّ مستقبلاً بأصابعه المرتجفة، كأنّه يرسم بيده ما لا يمكن حفظه.

قالت له أمه: «محكي فيها». كلمتان كافيتان لتتشقّق داخله نافذة، ويصير جسده ضيقًا على نفسه.

راح ينسحب من الأمكنة، من النهارات، من الكتب، من وجوه أصدقائه. ظهره انحنى قليلًا، وصوته خفّ، وعيناه تعمقتا كعيني غراب. صار يتسلّق الجدار كل غروب. في البداية رأى مريم. ثم رأى ظلّها، ثم بقي يتسلّق دون أن يرى شيئًا كأنّ صعوده صار طقسًا يُعفيه من التخلي عن الحلم.

مرّت السنوات كزفيرٍ طويل. ذهب إلى المدينة، دخل في أجساد أخرى، ضحك، كتب رسائل. لكن كلما ضحك تساقط شيء لا يُسمع. كل يد لمسها أحسّها غريبة كيد ميت لا يتوقع اللمس.

وفي إحدى الليالي عاد. لم يتغير شيء؛ البيت القديم كما تركه، الجدار واقف، والتراب له نفس الرائحة التي يعرفها. رآها... مريم. تمشي نحو كروم العنب، تمشي بخطى تشبه المطر القديم؛ لا يستعجل، ولا يتأخر.

نظر في عينيها وسألها: «هل تذكرين؟»

قالت بنظرة لم ترتجف: «أنا لم أنس..».

ومن هنا عاد كل شيء. الليالي التي لم تُعش، الهدايا التي بقيت في الدرج، الصورة، الانتظار الذي تشكل كأنفاس في زجاج نافذة مغلقة.

القرية سمعت كالعادة، صدقت أكثر القصص ندالة؛ قالوا إن مريم قُطفت من أطفالها كما تُقتلع نبتة قبل أن تورق. قالوا إن أيمن لم يُر بعدها، كأن الجدار ابتلعه. ثم جاءت الليلة. مريم، وحدها، في الشقة الجديدة. ثلاثة أيام لم يأت منه شيء: لا اتصال، لا رسالة، لا حتى إشعار مفقود!

وفي اليوم الرابع، وصل ظرف بني. في داخله صورة لرجل يقف عند الجدار، ملامحه غير واضحة؛ على ظهر الصورة كُتب بخط مائل:
«كنت أراك ترقصين.»

لكنني لم أكن حياً لأرقص معك».

في تلك الليلة، حين غربت الشمس، عُثِر على مريم ممدّدة على الأرض؛ عيناها مفتوحتان والابتسامة على فمها رقيقة كجرح خفيف، الشال ملتفّ حول رقبتها، ويدها ساكتتان. الطبيب كتب في تقريره: «نشاط كهربائي، لم يتوقف القلب، ولكنه رفض المتابعة». لكن لا أحد قرأ التقرير. في الواقع، لم يفتحه أحد.

أما كانت تقف قرب النافذة، تمسح الزجاج بكمّ ثوبها، وتهمس لنفسها: «أعرف هذه النظرة... رأيتها في المرأة حين مات والدها».

أما أيمن! فلم يُعرف له أثر. البعض قال إنه سافر، البعض قال إنه مات، البعض رآه في الحقول يزرع ظله بدل القمح. لكن الحقيقة! لم يره أحدٌ منذ تلك الليلة. حتى جدار القرية -الذي كان يتسلقه كل مساء- وجدوه نظيفاً، بلا أثرٍ لأصابع، ولا بقايا خطوات، ولا حتى ظلال.

ثم... بدأت الرسائل. سكان القرية وجدوا في صناديق بريدهم -فجأة- صوراً؛ كل صورة لرجل يقف عند جدار، ملامحه غير واضحة، يشبه أيمن، ولا يشبهه. وفي ظهر كل صورة جملة مختلفة:

«أنا هنا، فقط لأتأكد أنها لم تعد».

«حين رقصت، مات شيء بداخلي لم أكن أعرف أنه حي».

«أبحث عن الشال؛ ليس كي أجدها... بل لألّف نفسي به».

ثم، وبعد أسبوع كامل من الصمت، وصل ظرف أخير إلى دار الأيتام. الظرف كان يحمل صورة واحدة؛ صورة قديمة شاحبة لطفلة تجلس تحت شجرة توت، وعلى حجرها شال ملون في الخلف مكتوب:

«لم تكن مريم، كانت ظلي».

«وأنا... كنت الطفل الذي نسيه الجميع خلف الجدار».

وفي صباح اليوم التالي، حين فتح الحارس باب المقبرة ليدفن رجلاً مات غريباً، وجد القبر مفتوحاً. ليس محفوراً، لا... بل مفتوحاً كما تُفتح الثلاجة في بيتٍ بلا كهرباء. وفي داخله كان هناك جسد ممدّد ملفوف بشالٍ نسائي، وبجانبه صورة لرجل يقف عند جدار، لكن هذه المرة ملامحه واضحة تماماً.

لم يكن أيمن.

لم يكن أحداً.

كان فقط وجهًا يشبه كل من لم يجد طريقه إلى البيت.

رشا

في عمر أبكر من المعتاد بدأت علاقة رشا الجدلية والمتوترة مع الكعب العالي؛ تحديداً عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، وبطول لا يتجاوز 130 سم، مع لقب (قزم) يتشبه بها ويخفقها، كما تفعل قلادة الخرزة الزرقاء المتأرجحة داخل عين ذهبية مبعلقة في الفراغ بلا معنى، والتي وُضعت في رقبتها حارسَةً منذ الولادة.

انتعلت أول حذاء بكعب عالٍ في الثالثة عشرة، وكان أسود بكعب عريض مستطيل رفع جسدها ما يقارب شبرًا عن الأرض، ورفع ثقتها بنفسها عدة أمتار كثيرة. تساوت قامتها إلا قليلاً مع قامات الفتيات الأخريات، ودفعت ثمن هذه المساواة ألمًا غاليًا: تمزقًا في أربطة القدم اليمنى.

كان الوقوع الأول مفاجئًا وسريعًا، كحلم السقوط من أعلى درج أول النوم. تزامن ذلك مع تورم واحمرار وتشنج وغثيان وحرارة مرتفعة. ومما زاد الوجع بلّةً أن أمها عالجت

قدمها اليمنى المسكينة بمغطس ماء ساخن باهظ الملوحة،
ما أثار استياء الطبيب لاحقاً الذي نصح بوضع قطع الثلج
في المرة القادمة.

هل قال: «المرة القادمة»؟

هذا الألم سيتكرر إذن!

ولكن هيهات أن تتخلى رشا عن الكعب المرتفع.
وتكرر التمزق بمعدل مرتين في العام: ألم، ونحيب،
ومسكنات، وتعطل عن المشي لخمس عشرة يوماً.
عندما بلغت الخامسة عشرة صارت مشكلتها تكمن
في تفوق قامتها على من حولها. تخلت عن الكعب العالي
وصارت تنقب عن الأحذية الأكثر التصاقاً بالأرض، ولكن
قدمها اليمنى بقيت وفيه لمأساتها. استمر مسلسل تمزق
الأربطة لسنوات تالية، ولم يكن الأمر يحتاج إلى حادثة،
فكل الالتواءات بعد ذلك كانت بقدم حافية تتعل الوجع
كعادة.

انقطعت علاقتها بالكعب العالي قبل عشرة أعوام تقريباً،
ولكن الحنين لا يزال يشدها إلى الواجهات المضاءة بقسوة.
تقف أمامها بفضول، تتأمل الأحذية الجميلة بألوانها الباسقة
اللمعان. تتبع الكعوب المرتفعة: مخملية أو زجاجية،

عريضة مُذهبة، رفيعة مزينة بحبات اللؤلؤ، مخرّزة، مشغولة
بخيوط الفضة، وقد تكون بفراء ناعم أو جلد حيوان لطيف.
ينتهي بها التأمل إلى شراء بعض الأزواج المغربية لتصبحها
برفقة أمنياتها الخائفة إلى الخزانة التي ستبقى حبيسة فيها
حتى ينال منها الاهتراء.

وقد حدث في مرات نادرة أن تصالحت مع ارتجافها
ولبست كعبًا عاليًا - بحذر هائل - لمناسبة ما، وما إن يعانق
قدميها حتى تختبر شعورًا لطيفًا ومبهّمًا...

شعورًا آخاذًا أن ترى العالم برفقة عدة سنتيمترات
إضافية؛ رؤية من زاوية قائمة جديدة بحيث يختلط تعاملها
مع القياسات والأشياء، فتحاول عيناها استيعاب العلو
الجديد، وترتبك يداها أمام خزانة المطبخ، وتُثار أصابعها
من نبتة العسلية التي نثرت أبواقها الصفراء والبيضاء على
شكل بتلات أعلى الجدار. تسير قدماها بارتباك متأنّ كما
لو أنهما اكتشفتا على عجالة دخولهما خطأً بيدر ألغام. يتغير
شكل جسدها، تتغير خارطة المشهد وحدود المرأة، وتسلل
إلى أذنيها وشوشات الصديقات يعلّقن على طولها بصحبة
إيماءات متخفية، وتبتسم بلا مبالاة تُنسي من غيرتهن.

وأيضًا عندما أحبّته... ارتدى قلبها كعبًا عاليًا!

فكانت دهشة تفوق قدرتها على المرح أن ترى العالم
برفقة عدة سنتيمترات إضافية من الشغف. أمسك اليقين
شكّها وسار بها إلى زاوية ترى فيها الكون بهندامٍ غرّ،
فتغيرت خارطة اللفهة، وتفنّنت عروقها بمداعبة دم اللغة،
وارتبكت ذاكرتها أمام صندوقها الأبيض، وروحها أمام
غبارها، وحار عقلها بهذيانه الثقيل، وجسدها بخفة فورانه،
وتلبّك نبضها كلّما وقع نظرها في فخ عينيه.

بدأت تتسلّل إلى مسمعها همسات الرفيقات والجارات
يعلّقن على فرحها الفارع، هي التي باتت سعادتها أطول من
سعادتهن.

عندما أحبّته خلع قلبها حذره وارتدى كعبًا عاليًا،
ونسيت تاريخها مع الكعوب العالية، فأمست امرأة بقلب
أعرج.

رَبِيبَةٌ

أوصتني صديقةٌ بأن أتناول حفنة مكسرات نيئة كل صباح، لأجل العافية، لأجل المزاج، لأجل (إعادة تأهيل الجهاز العصبي) كما قالت، وكأني آلة منسية تحتاج إلى صيانة. أغلقتُ كفي على الخليط، كما تُغلق الأجنان على حُلْمٍ في آخر الليل، وببطء بدأت أفتح أصابعي، كمن يفكُّ خيوط قنبلة دون معرفة أيِّ الأسلاك تفجّر.

توهّجت حبة لوز أخضر بلونٍ لا يُشبه سوى ماء الحشيش حين يُهرَس في الهاون، ذلك الأخضر المائل للدهشة، لونُ الحياة حين كانت تُرى بلا فلاتر ولا فقه. هبّت نسمة خفيفة باردة، شعرتُ بمسام جسدي تتفتح كما تتفتح الثقوب في ورق محترق، واخترقتني رائحة لم تكن من الأرض؛ رائحةٌ تقفز من حنجرة شجرةٍ ما زالت تظنُّ أنها في الجنة.

فتحتُ النافذة. كان صباحًا مُرَمِّدًا؛ الشمس تمشي على رؤوس الأصابع فوق الأسطح، وصوتُ منشارٍ يقطع

الأشجار. رأيتُ رجلاً مسناً يقطع شجرة لوز. وجهه مثل
تفاحة تُضرب بمطرقة؛ مُحمرّ، غاضب، مُتشقّق. دمةٌ
مُعلّقة في أحد جفنيه، يدها تهتان كما تهتز الكواكب حين
تُبدّل مدارها. سقطت الشجرة، ثم أخرى، ثم ثالثة. في كل
سقطة شعرتُ أن فقرة من عمودي الفقري تُخلع. كان هؤلاء
أصحاب الأرض في عفرين، يقطعون أشجارهم احتجاجاً
على تغيير ديموغرافي يطال أرضهم. كنتُ شاهدة على
مجزرة اللوز؛ واللوز في كفي يحمل لون الدم الأخضر
المسفوك.

نادتني حبات الجوز. لونها البني المحروق، قشرتها
التي تشبه قشرة عقل لم يُستخدم بعد. بيت عمّي؛ في صحن
داره، شجرة جوز شامخة، كان يجلس تحتها، يضع كفه على
رؤوس النساء، ويقول لهنّ إنّ الرزق سيأتي، وإنّ الرّحم
سينبض، وإنّ الأرواح سترتّب أغلفتها. لكنه - في وقت
لاحق - يمسك بابنه من الكاحلين، ويربطه بالجبل، ويعلقه
مقلوباً من أحد الأغصان، كما يُعلّق صنّاع الدمى حيوانات
قماشية لتجفّ من الدم المُزيّف.

كنا نتفرّج. أنا كنتُ أقف بعيداً، كأنني علامة ترقيم في
جملة لا تخصني، أراقب هذا التناقض وهو ينمو كالعفن

بين الجلد والقماش. كنتُ شاهدة على عملية الشَّبح طول
الأماد، على الطاعة التي تُولد من الألم، وعلى قدسية الأب
الذي يمارس التعذيب باسم التربية. كانت حبة الجوز في
يدي، قشرتها الصلبة هي ذاتها قشرة العقل الذي يُبرر العنف
باسم الحكمة.

ثم لفتتني حبة بندق صغيرة، مغلقة كسرّ. تذكّرتُ رقيّة،
أو ربما سيفين، أو ربما الطفلة التي نسيْتُ كيف يُنادى عليها.
كانت في غرفة باردة مركونةً في الزاوية كما تُركن الهدايا
القديمة في صناديق الكرتون بعد حروب الأعياد. سألتهم:
من «هذه؟» قالوا: «جارية». لم يكن في عينيها خوف، بل
شيءٌ يشبه غياب الجاذبية - سقوطٌ لا متناهٍ بلا أرض. سألتها
عن اسمها، فقالت اسمين. وحين سألتها عمّا تريد، قالت:
«أمي». ثم صمتنا وبكىنا، كأننا رثّان تتنفسان الحزن نفسه
على طرفي قارة، أو كأننا آخر الناجين من سفينة غرقت في
بحر من النسيان.

في ذات اليوم، قدّمت المهلبية. كانت باردة، بلا طعم،
فوقها فتات من فُستق حلبي. في المقبرة نفسها، تحت
التراب نفسه، دُفن خمسة شبّان من العائلة، واحد منهم قال
إنه يقاتل باسم الله، والثاني باسم الوطن، والثالث باسم

زعيم مات قبل أن يولد. لم يصرخ أحد. ولم تُرفع رايات. دُفِنوا كما تُدْفَن الأصوات في صدر من لا يُصدِّق نفسه. الموت كان أخضر، ومذاقه يشبه السكر الذي فسد في علبة مغلقة منذ شهور.

ثم جاء الفول السوداني. رأيتُ ابن عمي يُطعمُ طفلةً حبةً فول سوداني. ثم رأيتُه في ساحة البازار في مدينة منبج يقطع إصبعي والده المدخن، باسم الإيمان. لكنه عاد إلى بيته مساءً، ليمسح الدَّم من أصابع ابنته التي أمسكت ورقة صَبَّار دون انتباه، ويُخرج الشوك من يدها كمن يُخرج الطاعون من أرجوحة. قَبَّل خديها، ووضع في يدها حبتين من الفول السوداني.

هنا فهمتُ. القلب مثل قارة مقسومة؛ تسكنه حرب أهلية بين الحنان والساطور. هذا التناقض ليس ضعفاً، بل هو جوهر الإنسان في زمننا. هو القدرة على ممارسة أقصى درجات العنف، ثم العودة لتقبيل خد طفل. هو الشيزوفرينيا الوجودية التي تُمزِّقنا.

الآن، أنظر إلى حفنة المكسرات. كأنني أنظر إلى أطلال لا يزور فيها أحد. القشرة البنية تتفكك، يخرج منها جسد أبيض، ثم ينبثق فرع، ثم غصن، ثم شجرة لوز، تشقُّ سقف

غرفتي، وتنبت داخل رأسي، تُزهر بأزهارٍ بيضاء بلون
التماسيح الحزينة.

تتحرك حبات البندق؛ تتزحلق تحت الطاولة، تتكدس
في زوايا الغرفة، وتحقق بي كما يحقق سؤال بلا إجابة في
كتاب العلوم.

الفسق الحلبي ينشق. تخرج منه فتاة صغيرة، تركض،
وتضحك، ويتبعها الفول السوداني، يحمل بيده مظلةً من
قشرته، ويمضيان معاً، غير أبهين بملهاة البشر.

حبات الجوز ترتجف. ترتب نفسها على شكل سلم،
ثم تختفي في الظل، نحو العلية حيث لا يطالها حبل الأب.
تسألني صديقتي: «ما زلت تتناولين المكسرات النيئة؟»
أجيبها وأنا أنظر إلى يدي كأنها مزار: «لم أعد أتناولها.
إنها تأكلني. إنها ذاكرة هذا الشرق، تأكلني لتعيد خلقي من
جديد».

رزان

كل الذين أحبّتهم رزان ماتوا في أحلامها الليلة؛ وحدّه
صوت المنبّه بقي حيّاً، يرنّ بتوقيت الثامنة صباحاً.
بيدٍ لا تُميّز بين النوم واليقظة أسكتت المنبّه؛ كأنها تكتمّ
فم الحياة. اللحن الذي اختارته ذات فرح زائل توقّف.
الساعة الثامنة. نهائراً جديداً... أم عقوبة جديدة؟
ولو هلةً تمنّت أن ترسل هذا النّفس الأخير إلى أحدٍ
يريده: لطفلٍ لم يُكمل لعبته، لأرملةٍ نامت وفي قلبها ظلّ
عناق، أو حتى لشجرة كرز تعبت من الوقوف. لو مُنحت تلك
الشجرة حياة إنسان لارتدت ثوباً من الضوء، وراحت تمشي
في المدينة؛ تُغوي السطوح وتضرب الأرض بكعبٍ نديّ.
لكنها هي؟ هي لا تطلب الحياة، ولا ترفضها. هي فقط
تجدها على طاولتها، كطبقٍ باردٍ لا تعرف من وضعه هناك.
نهضت؛ لا لأنها تريد، بل لأن شيئاً داخلها انكسر ولم
تعد تتحمّل وزن الوسادة.

فتحت النافذة... كانت الشمس هناك تتسوّل النظر.
قالت لها بصمتها: «اخرجي، المدينة تنتظرك لتكتشفي كم
لا تهمينها».

وهي؟ هي تهتم للمدن التي لا تهتمها؛ فيها حرية
الحشرات.

مرّ شهران على وجودها هنا. سكنت في بيتٍ لا تعرف
كيف دخلته.

نجت من وطنٍ صار مقبرةً مُكيّفةً بالأمل الزائف.
والمُدْهَش أنها لم تغادر هذا البيت قط؛ كانت تنتقل بين
الغرف كأنها تدور في قصيدةٍ نُسيت تحت السرير.

اليوم -ولسببٍ لا تعرفه- قررت الخروج. ارتدت
بنطالاً يشبه خطأً نحوياً، وقميصاً أبيض بلون النسيان،
وثبتت شعرها ببكّلةٍ بدت كفكرةٍ لم تكتمل.

نظرت في المرأة: من هذه؟ هل هي تلك التي كانتها؟
أم مُسوّدةٍ أخرى منها؟

أعدت القهوة على عجل، وسكبتها في كأسٍ يشبه تابوتاً
صغيراً للحرارة.

خرجت، الشمس تركتها عند العتبة. السماء تُدخنُ غيمةً
رمادية. تموز بدا طرياً، هشاً؛ يمكن عضه.

مشيت. البحر الذي بدا قريباً من شرفتها، اتضح أنه بعيد. مشت بلا خطة، بلا سبب؛ فقط، لأن المشي حركة تُقنعها أنها موجودة.

في الطريق صبيُّ قدّم لها شوكولاتة... ناولته وردة، سرقتها من يد طفلةٍ تباع الذبول. ضحكت، ثم تذكّرت أنها لا تحمل المال ولا هاتفها. وأدركت -بابتسامة حُمق شاعر- أنها الآن غريبة رسمياً: لا لغة، لا وسيلة اتصال، لا وطن، لا جيب، لا خطة طوارئ.

تعبت؛ جلست على مقعدٍ خشبيّ رطب، البحر من أمامها والضياع من خلفها، وخطى الناس تعبرها كما تعبر الأغاني الأحياء الذين فقدوا السمع.

وحيدة تماماً، تحمل في داخلها أصواتاً كثيرة تتشاجر ثم تسكت. كل ما فيها كان ساكناً... إلا القلب كان يدق، كما لو أنه يواصل مهمةً لم يُبلِّغ بعد بانتهائها.

وفجأة... من مكانٍ بعيد، من بئرٍ سريٍّ في الرأس، انبعث ذلك اللحن ذاته؛ اللحن الذي اختارته حين كانت تظنّ أن الموسيقى تصلح كبطانية صباحية.

و... بيدٍ لا تزال تتوسّد النعاس... أسكتت المنبه.

الساعة الثامنة. لا واجبات لديها اليوم.

بقيت في سريرها... كأنها خشبة نجاة طافية فوق وقتٍ
غريق. وسألت... لا أحد، أو ربما الله، أو الجدار:
«يا من توزع الحياة كل صباح، ألم تلحظ قلّة اكتراثي
بهبتك؟ خذها... وأعطها لمن يرى الحياة انتصارًا».
ثم أغمضت عينيها. هل كانت تنام أم تستيقظ؟

بتول

استفاقت بتول على عجل؛ كأن الحلم قذفها إلى الصباح
قبل أن تكتمل ملامحه. فركت عينيها الصغيرتين لتطرد بقايا
الليل، وفي الوقت نفسه راحت يدها الأخرى تنقب تحت
الوسادة بلهفة سرية.

فجأة، انطلق صوتها المبهج: «ماما! لقد جاءت جنية
الأسنان! وضعت لي الشوكولاتة والنقود... وأخذت سنّي!»
جلست عند طرف السرير منشغلة بتقسيم الغنيمة إلى
ثلاثة أقسام متساوية، كما لو أنها وزير عدل. قطعة لها،
وقطعتان توزّعهما على إختوها، كما لو أن ثروتها الصغيرة
تستمد معناها من اقتسامها.

الأم كانت تراقبها بصمت. في ابتسامتها انعكاس فرح
الطفلة، وفي عينيها ظل قديم لا يراه أحد. سؤال الصغيرة
باغتها: «ماما، عندما سقطت أسنانك... هل جاءت إليك
الجنية؟»

تردّدت الكلمات في حلق الأم، ثم خرجت: «أجل». كلمة قصيرة، بلا جذر ولا معنى، كأنها طُرحت في الهواء لتستر فجوة واسعة.

فكيف يمكنها أن تشرح أن طفولتها لم تعرف جنيات بيضاوات بشعور مُخَصَّلة بالذهب ولا عصي سحرية براقّة، وأن الوسادة لم تكن مأوىً للحلوى، بل فخاً للكوايبس! كانت أمها تحكي عن الجنّ بملامحه السوداء، وشعره الأشعث، وقدميه الشبيهة بالماعز؛ جنّ يتربص في زوايا البيت، يخرج كلما سُكب ماء ساخن بلا ذكر اسم الله، ويتراءى في عيون القطط السوداء التي تعبر الطريق.

كانت الطفلة توزع الشوكولاتة مبتسمة، والأم توزع ابتسامتها المقيّدة. في أعماقها كانت تعرف أنها اختارت لطفلتها كائناً آخر: جنّية تحمل كيساً من السكر بدل سوط الخوف. لم تمحُ الموروث، لكنها أعادت كتابته.

وهناك - في صمت الغرفة - كانت الطفلة تضحك لزيارة الجنّية، بينما طفلة أخرى قديمة، بوجه الأم نفسها، ترتجف في الظلّ وهي تتربص وقع أقدام غامضة لا تراها سواها.

سلمى

منذ سنوات طويلة قررت سلمى أن ذاكرتها أعنف من أن تُترك سائبة في رأسها. كانت تؤمن بأن الدماغ جهاز فاشل للحفظ، يحرفّ الوقائع ويُضيف البهارات كما لو أنه طبّاخ كسول. فابتكرت نظامًا أكثر علمية: (المرطبانات). صفوف من أوعية زجاجية مُحكمة الغلق، مصطفة في قبو بيتها كما تُصنّف البضائع في متجر شعبي، لكنها لا تحوي مُربّى ولا خيارًا مخللاً، بل تحمل أحداثًا معيّنة من حياتها، مكتوبةً على أوراق صغيرة ملصقة بالغطاء.

مرطبان (أيلول 2018)؛ تاريخ هروب الحبيب. مرطبان (بأب 1999)؛ الأيام الأخيرة قبل موت الأب. مرطبان (المرأة المكسورة)؛ اللحظات التي كرهت فيها انعكاسها. المرطبانات كانت توابيت صغيرة للذكريات، محشوة بالملابس التي ارتدتها، بقايا عطرها، شريط تسجيل قديم لصوتها أو صوته، قصاصة ورق، أو حتى قشرة ليمون

حملت رائحته. ثم يُغلق المرطبان ويُركن في مكانه كجثة محفوظة بانتظار أن تُدفن يوماً ما.

كانت سلمى تقول لنفسها وهي تضع آخر قطعة في المرطبان: «هكذا لن يشيخ الألم؛ سيظل طازجاً حتى إشعار آخر». كانت تعتقد أن الألم إذا تُرك في الهواء يفسد مثل اللحم، أما إذا حُبس بإحكام فإنه يصبح (مؤرشفاً). أحياناً كانت تتخيل لجنة من علماء المستقبل يدخلون قبوها بعد مئة عام، فيجدون هذه المرطبانات ويقولون: «أخيراً وجدنا أندر متحف في التاريخ: متحف الأحاسيس الأصلية!» كانت تلك الفكرة تمنحها شعوراً بالسلطة، كأنها ليست مجرد امرأة مصابة بالوسواس، بل باحثة في مختبر نفسي متطور. لكن ذات ليلة، وبينما كانت تستعد للنوم، شعرت بأن صدرها يختنق. همست لنفسها: «أحد المرطبانات بدأ يُسرب». هرعت إلى القبو ووقفت أمام صفوف الزجاج. وقع بصرها على مرطبان (أيلول 2018)، وكان الغطاء مبللاً بطبقة رقيقة من الندى، كأنه يتعرق. فتحتة بحذر؛ لم تجد رائحة عطره المعتادة، بل رائحة صداداً واحتراق. سحبت السترة المتجمدة من الداخل، فوجدت في جيبتها بقعة صلبة كالدموع المتحجرة، ومعها شريط تسجيل. وضعت الشريط

في جهاز قديم، فانطلقت كلمات لم تسمعها من قبل: «سلمى، أنا لم أعادر لأنني لم أحبك، بل لأنك كنتِ بارعة في اللامبالاة أكثر مني. كنتِ باردة حتى وأنتِ تبسمين». صرخت وأفلتت الجهاز. هذه لم تكن الرسالة التي أغلقت عليها المرطبان قبل سنوات!

بحثت في دفتر الجرد لتتأكد. هناك سطر آخر لم تلاحظه: مرطبان ثانٍ بنفس التاريخ، مسجّل باسم (الأصلي - البداية). لكن مكانه في القبو فارغ. صعّدت إلى غرفة المعيشة، وراحت تُقلّب الأثاث حتى وجدت في العلّية مرطباناً أبيض صغيراً. فتحتّه فإذا بداخله ملفّ طبي قديم. قلبت أوراقه بسرعة، فقرأت التشخيص: «الانفصال الوجداني المتعمّد: حالة نفسية نادرة يلجأ فيها المريض إلى تجميد محفزاته العاطفية بدل مواجهتها». وفي آخر الصفحة سطر بخط يد والدها: «ابنتي، أنا من أعطيتك فكرة المرطبان. كنت أظنّها علاجاً، لكنك حوّلتها إلى ديانة كاملة. الحقيقة الأقسى أنك لا تجمدين الذكريات... أنتِ تجمدين نفسك».

ارتجفت يداها، فأعدت البحث في قاع المرطبان حتى وجدت صورة قديمة لها مع حبيبها. على ظهرها جملة بخط

واضح: «في أيلول 2018، لم يغادر هو... أنت من طردته، ثم حبستِ القصة في زجاج لتصدقي لاحقاً أنه هرب». سقطت الصورة من يدها، وضحكت ضحكة قصيرة، ثم قالت بصوت عالٍ: «إذن قضيت عمري أصنع مُخلّلات نفسية!؟» صداها ارتطم بجدران القبو كأنه سخرية من عالم سفلي .

فجأة، ارتجّت الرفوف، وتطايرت الأغطية من المرطبانات واحداً تلو الآخر. خرجت روائح قديمة، أصوات مختنقة، ضحكات مكسورة، بكاء معدني، وصدى كلمات بلا معنى. الهواء امتلأً بغبار عطور رخيصة مختلطة برائحة العرق والخوف. حاولت سلمى أن تُغلق المرطبانات مجدداً، لكن الغطاء كان يقاومها كما لو أن الذكريات نفسها قررت الانتحار الجماعي.

جلست على الأرض محاطة بملابس متجمدة تنفتت كالعظام، وشرائط تسجيل تنطق وحدها بجمل مبتورة، وزجاج متناثر يشبه جثثاً صغيرة. مدّت يدها إلى وجهها لتكتشف أن دموعها أيضاً صارت باردة، كأنها آخر شيء حُفظ في مرطبان لم يُغلق. ابتسمت ابتسامة ملتوية وقالت: «على الأقل سأكون أول إنسان في التاريخ يُكتب في تقرير

وفاته: مات بسبب تسمم عاطفي محفوظ في مرطبان». ثم أغمضت عينيها، فيما المرطبانات كلها أخذت تُصَفَّقُ أغطيتها بإيقاع عجيب، كأنها تسخر منها في جنازة بلا مشيِّعين.

مذكرات الكائن رقم: 311

في البدء، لم يكن هناك صوتٌ سوى النبض.
الضوء لم يكن نورًا، بل سكينًا، يشقني من الجفن حتى
العظم.

استيقظتُ دون اسم، دون جسد واضح؛ مجرد وعيٍ معلق
في بياض مشعّ. كل شيءٍ حولي يصرخ: «أنت تحت المراقبة».
وكل شيءٍ داخلي يهمس: «هل كنت هنا من قبل؟»
لا أتذكر كيف وصلت. لكنني أعلم تمامًا... أنني لم
أكن الوحيد.

اليوم الأول...
يدُّ بلا وجه تزرع إبرةً في وريدي. صوتٌ ألي يعدّ دقائق
قلبي.

الجدران بيضاء، السقف أبيض، الصمت أبيض،
وأفكاري مشوشة.

هل أنا فأر؟ هل هذه حياتي... أم نهايتها؟

عجلة رمادية تلمع في منتصف الغرفة. لا أملك سببًا
للركض، لكنني أركض.

اليوم الثالث...

كل دورة من العجلة تفتح بابًا خلفيًا في الذاكرة:

قطعة جبن. ظلّ قطة. رائحة نفاية دافئة.

أنثى بعيون رمادية كانت تضحك حين أرتجف.

كانت تُطعمني المكسرات وتهمس لي قبل النوم:

«أذناك كبيرتان، لكنك أذكى ممّا تظن».

كنا نشاهد أفلام الآخرين عبر نوافذ الآخرين، وكان

فيلمنا المفضّل عن فأر أراد أن يطبخ للعالم.

ضحكنا كثيرًا؛ كنا نعتقد أن الفأر يمكنه أن يصبح طاهيًا.

لكن الحقيقة؟

العالم لا يتناول طعام الفئران...

إنه يتناول الفئران ذاتها.

اليوم السابع...

أُحَقِّن كل صباح بمادة شفّافة؛ تجعل قلبي يُصَفَّق،

وأطرافي ترتجف.

أركض داخل العجلة كما لو أنني أطارِد خلاصًا... أو

أهرب من فكرة.

ثم فجأة... السقوط. لا حنين. لا غضب. لا توق.
مجرد سباحة بطيئة في مستنقع الزمن. كل شيء باهت،
إلا الضوء.

الضوء الآن يشبه الله حين يختبر عباده بلا سبب واضح.
اليوم العاشر...

أشعر بأني لا أعيش، بل يُعَيِّش بي.
كل حركاتي مُقنَّنة، كل رغباتي مُبرمجة.
أنا مجرد متغيّر في معادلة معقّدة لا يهمني فهمها؛ لأن
أحدًا لم يسألني إن كنت أرغب بالمشاركة.

في آخر الليل تأتي نقطة استفهام كبيرة؛ تضع نفسها في
حزني كقط صغير... أحاول تذكّر كيف كان الشعور عندما
كنتُ (أنا)؛ لكنني لا أملك حتى اسمًا.
اليوم الأربعون...

كنا كثيرين.
كائنات صغيرة، بنفسٍ متقطع، وعيون مرهقة، وأرواح
لم تُختر أن تُجرب.

قال أحدنا، قبل أن يُنقل إلى غرفة أخرى:
«ربما لسنا فئرانًا؛ ربما نحن بشرٌ حوّلوا، أو آلهةٌ
سقطت!»

ضحك الآخر:

«أو تجسيد لأفكارٍ رفضها العقل، فحُبست في الجسد!»
أنا لم أضحك.

كنت أتساءل بصمت:

هل أحنّ لما كنت عليه... أم لما لم أكنه يوماً؟

اليوم التسعون...

أصابعي، أو ما يشبهها، بالكاد تتحرك.

نظري ضبابي. الضوء أشدّ من أي وقت مضى.

أسمع أصواتاً من خلف الزجاج:

«التجربة رقم 311 تُظهر مقاومة منخفضة بعد ثلاثين

دورة أدرينالين!»

صوت آخر يسأل: «هل نُسجّلها؟»

ثم الصمت.

اليوم الأخير...

الضوء لم يعد أداة. لقد أصبح الحقيقة ذاتها. الجدران

تتلاشى، والزمن يتكسر كزجاج رقيق. أنا الآن خارج

الجسد، فوق العجلة، داخل العتمة.

أرى من بعيد غرفة مليئة بالأقفاص؛ بالفئران، بالكائنات

التي تشبهني.

كلهم يركضون، كلهم ينسون، كلهم يُراقبون؛ أما أنا...
فقد عدت... إلى تلك الليلة.
حين كانت تضع في كفيّ حبة كستناء وتهمس لي قبل
النوم:

«نم، أيها الشقي الصغير. العالم لا يستحقك!»
وأنا...
أصدقها.

[انتهت]

فهرس القصص

5 محاولة موت ناجحة
9 شر اشيب الذرة الشقراء
13 الحميماتي
19 يارا
21 جهينة
25 صابرين
29 خلود
37 سهيلة
43 رفيدة
47 نورا
53 لبنى
57 مريم
63 رشا
67 رقية
73 رزان
77 بتول
79 سلمى
85 مذكّرات الكائن رقم: 311

